# الفصل الثالث

# الفصل الثالث

# فى حرية الضمير

من الظواهر التى شاعت فى حياتنا الفكرية –فى العقود الأخيرة – ظ.اهرة الـ.ضيق بالرأى المخالف.. وحكم غير المختصين فى أعمال فكرية لا علاقة لتخصصهم العلمى بهـ.ا، وقياسها بغير المعايير التى يجب أن تقاس بها؟!.. والذهاب فى "ضيق الصدر الفكرى" إلى حد الحكم بالكفر على هؤلاء المخالفين؟!..

ويخطئ من يظن أن هذا السلوك الردىء وقف على بعض "الإسلاميين" الذين يكفرون نفرا من "العلمانيين".. ذلك أن سلاح التكفير هذا قد أصبح مشهرا ضد العديـ.د مـ.ن فـ.ضائل الإسلاميين، توجهه ضدهم "دول" و "مؤسسات "، وليس مجرد كتاب أو مكفـ.رين؟!.. الأمـ.ر الذى يدعو الاحتكام إلى الإسلام، طلبا لكلمة سواء فى هذا الأمر الخطير..

وإذا كان إسلامنا قد علمنا أن معرفة الحق هى السبيل إلى معرفة أهله، وأن الإسـ.لام هو الحاكم على الرجال، دون أن يكون فى تصرفات "الرجال" – إذا تنكبت طريق الحق – ما يعيب الإسلام.. ومن ثم فإن على مختلف الفرقاء الذين يدافعون عن الإسلام دفاع "الدبة التـ.ى قتلت صاحبها" من فرط حبها – غير الواعى – إياه؟!.. وأيضا أولئك يتلقفـ.ون صـ.نيع هـ.ذه "الدبة" لتشويه الدعوة المقدسة والنبيلة من أجل استكمال أسلحة الواقع والقانون فى مجتمعـ.ات المسلمين.. إن مختلف الفرقاء فى هذه القضية مدعوون إلى الأحكام إلى "الحق"، كما تمثل فى أصول الإسلام – قرآناً وسنة – وفى فكر أعلامه، وفى تطبيقات هذه الأصول ومناهج هؤلاء الأعلام.. ومنهم علماء وأعلام الأزهر الشريف، على امتداد تاريخه العريق..

* فالله، سبحانه وتعالى، يعلمنا – بقرآنه الكريم – تفرده وحده، واختصاص دون سواه بالحكم على العقائد والضمائر والأفئدة والقلوب، لأنه وحده صاحب العلم المحيط بما فيها، لـ.م يعط شيئًا من ذلك لأحد سواه.. ﴿**يا أَيها الَّذين آمنُوا إِذَا ضربتُم فِى سبِيلِ اللَّـ.هِ فَتَبينُـ.وا ولا تَقُولُوا لِمن أَلْقَى إِلَيكُم السلام لَستَ مؤْمناً تَبتَغُون عرض الْحياةِ الدنْيا فَعنْد اللَّهِ مغَانِم كَثِيـ.رةٌ كَذَلِك كُنتُم مِن قَبلُ فَمن اللَّه علَيكُم فَتَبينُوا إِن اللَّه كَان بِما تَعملُون خَبِيراً**﴾ (1).

ولقد وقف أئمة تفسير القرآن الكريم وأعلامه أمام هذا التوجيه القرآنـ.ى والفريـ.ضة الإلهية، وقفة ذات دلالة، فقالوا لنا: إن فى هذا التوجيه الإلهى "من الفقه باب عظيم، وهـ.و أن

---

(1) سورة النساء الآية ٩٤.

الأحكام تناط بالمظان والظواهر، لا على القطع واطلاع السرائر.. فالله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر.." [1].

فعلى الذين يقلدون الكهانة الكنسية، باسم الإسلام، وأيا كانت مواقعهم، يتقوا الله فى الإسلام – الذى لم يحفظوا كتابه، ولم يفقهوا علومه، ولم يكتبوا فى فكره كتابا واحدا؟!..

وعلى أعداء الشريعة، وأنصار "التغريب"، والمبشرين بالتبعية للحضارة الغربية، أن يعلموا أن هذه "الصغائر" ليست من الإسلام فى شىء.. ومن ثم فلا حجة فيها على الإسلام؟!

- ورسول الإسلام، ﷺ هو الذى نتعلم منه النهج والقدوة فى هذا المقام.. لقد جاءه نفر من صحابته يحدثون عن"الوساوس" التى جعلتهم "يشكون" فى جوهر الدين ومحور التدين.. فى ذات الله؟!.. فلم يجزع رسول الله ﷺ.. ولم ينهرهم.. ولم يتصيد مواقف الضعف ليوجه الاتهامات.ز بل وصف حالهم وقلقهم الفكري، "وشكلهم المنهجى" الباحث عن سبل اليقين بأنه "صريح الإيمان.. ومحض الإيمان" ولبه وجوهره؟!.. ففى الحديث، الذى يرويه أبو هريرة، يقول: جاء نفر من الصحابة إلى رسول الله، ﷺ فقالوا: " يا رسول الله، إن أحدنا يحدث نفسه بالشىء ما يحب أن يتكلم به وإن له ما على الأرض من شىء.. وإنا نجد فى أنفسه ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به"! فأجابهم الهادى البشير: " وقد وجدتموه "؟!.. قالوا.. نعم.. فقال: "ذاك صريح الإيمان.. ذاك محض الإيمان" [2]؟!..
- وإنها لشهيرة وحاسمة قصة ذلك الحديث الذى رواه بطلها أسامة بن زيد، رضى الله عنهما، قال: "بعثنا رسول الله ﷺ، فى سرية، فصبحنا الحرقات –، مكان ] – من جينة. فأدركت رجلاً، فقال: لا إله إلا الله. فطعنته. فوقع فى نفسى من ذلك فذكرته للنبى، ﷺ، فقال: " أقال: لا إله إلا الله، وقتلته؟! ".. قال قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: " أفلا شققت عن قلبه لتعلم أقالها أم لا؟! ". "فما زال يكررها على حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ " [3]

وأمام هذا النهج النبوى، والموقف الإسلامى الجامع يقف الإمام النووى [ ٦٣١ هـ. – ٦٧٦ هـ./ ١٢٣٣ – ١٢٧٧م ] وهو يشرح وما ينطق به اللسان. وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه "!.

---

(1) القرطبى (الطامع لأحكام القرآن) ج٥ ص ٣٣٩، ٣٤٠ طبعة دار الكتب المصرية.

(2) حديثان رواهما مسلم والإمام أحمد.

(3) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة والإمام أحمد.

فعلى الذين لم يفقهوا نهج الإسلام فى صيانة العقائد عن عبث الأحكام وطائش القرارات، أن يتقوا الله فى هذا النهج الذى تميز به الإسلام وامتاز على غيره من الديانات..

وعلى الذين يكيدون للإسلام ونهجه بتصيد العابث من الأحكام والطائش من القرارات، أن يميزوا بين هذا النهج الراقى للإسلام الحنيف وبين عبث العابثين.. فمعرفة الحق هى السبيل إلى معرفة أهله – وليس العكس – وليس فى حكم "الرجال" ما ينهض حجة على الإسلام؟!..

- وها هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [ ٤٥٠ هـ. – ٥٠٥هـ./ ١٠٥٨م – ١١١١م ] يعلم الدنيا أن هذا النهج الإسلامى لم يكن مجرد "فكر نظري"، وإنما كان التزام حضارة وضعه أعلامها فى "الممارسة والتطبيق" فيقول: إنه "ينبغى التطبيق"، فيقول: إنه "ينبغى الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلاً، فإنه استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، خطأ. والخطأ فى ترك ألف كافر أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم" [1]!
- وفى عصرنا الحديث، نجد السيادة لهذا النهج الإسلامى العظيم... فعندا يخلط واحد من دعاة "التغريب" – هو فرح أنطون [ ١٨٧٤ – ١٩٢٢م] بين موقف الإسلام ونهجه هذا وبين الكهانة الكنسية الغربية التى زعمت لنفسها حق الحكم على العقائد والضمائر، ينبرى إمام الاجتهاد الإسلامى الحديث، والابن البار للأزهر الشريف الشيخ محمد عبده [٢٦٦– ١٣٢٣هـ./ ١٨٤٩ – ١٩٠٥] ليقول: "إن الله لم يجعل للخليفة ولا للقاضى ولا للمفتى ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام.. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه فى طريق نظره، فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم.. وليس لمسلم، مهما علا كعبه فى الإسلام، على آخر، مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد.. ".. ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من وقواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه،

---

(1) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٤٣. طبعة القاهرة – مكتبة صبيح بدون تاريخ

ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر.."[1]

فكان فى هذا الفكر الوجه المشرق للإسلام فى هذا الموضوع.. تعلم منه أهل الإخلاص من "الإسلاميين" ومن "العمانيين" على حد سواء!..

* بل وما لنا لا نذكر كل الفرقاء، من أنصار أسلمة الواقع والقانون، ومن دعاة "التغريب" والتبعية للغرب فى الفكر والسلوك.. ما لنا لا نذكر كل هؤلاء الفرقاء بنهج الأزهر، تاريخيا فى مثل هذه الأمور.

لقد جاء حين من الدهر ادعى فيه واحد من علماء الأزهر – هو المرحوم الشيخ على عبد الرازق [ ١٣٠٥م – ١٣٨٦هـ / ١٨٨٧م – ١٩٦٦م] – دعوى لم يقل بمثلها عالم مسلم عبر تاريخ الإسلام الطويل.. ادعى أن الإسلام دين لا دولة، وأن نبيه رسول رسالة روحية وليس حاكما ولا قائد دولة، وأن هذا الإسلام مثله كمثل المسيحية يدعو لأن ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله؟.!!..

وعندما تصدى الأزهر، يومئذ لهذه الدعوى، وجدنا وثائقه الفكرية، التى نقضت هذا الزعم، قد برئت من أى اتهام للرجل فى عقيدته.. استوت فى ذلك "حيثيات" حكم وهيئة كبار العلماء"، وما كتبه الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين فى كتابه [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ] ما كتبه المفتى محمد نجيب المطيعى فى كتابه [حقيقة الإسلام وأصول الحكم]..

بل وكان ذلك هو التزام الأزهر وعلمائه عندما خرج الدكتور طه حسين سنة ١٩٢٦م بكتابه [فى الشعر الجاهلى].. وفيه ما فيه من إلقاء ظلال الشك الديكارتى على بعض من قصص القرآن الكريم؟!

فبدا من القرآن الكريم... إلى السنة النبوية.. إلى النهج الذى انتهجه أئمة الإسلام وأعلامه.. والذى جسدته مواقف الأزهر الشريف، عبر تاريخه العريق،... كانت مقارعة الحجة بالحجة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.. والتحرج كل التحرج من الكهانة والسلطة الدينية فى الحكم على الضمائر والعقائد والأفئدة والقلوب...

---

(1) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج٣ ص ٢٨٣ – ٢٨٩ . دراسة وتحقيق د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

وعندما أصيبت بعض الفضائل الشبابية فى حركة الصحوة الإسلامية المعاصر بـ.داء الحكم على عقائد المسلمين بالكفر وعلى مجتمعاتهم بالارتداد إلى الجاهلية.. كان الأزهر فـ.ى مقدمة من تصدى لهذا الانحراف عن نهج الإسلام بالنقد والتفنيد والتوجيه..

تلك هى تقاليد الإسلام الدين.. والإسلام الحضارة، مع هذه القضية، التـ.ى يجـ.ب أن يرعى فيها الجميع هذه التقاليد التى أرساها الإسلام منذ أن نزل الوحى بكتابه المبين على قلب الصادق الأمين، عليه الصلاة والسلام..

****

إن طوق النجاة لهذه الأمة إنما يكمن فى "الإبداع" و"الاجتهـ.اد" و "التجديـ.د"، الـ.ذى تصوغ به مشروعها الحضارى المتميز عن المشروع الغربى، كشرط ضرورى لنجاح جهادها المقدس لوضع هذا المشروع فى الممارسة والتطبيق..

وإن هذا البلاء، المتمثل فى "ضيق الأفق" و "ضيق الصدر الفكرى"، إلى حـ.د تكفيـ.ر المخالفين.. إن هذا البلاء هو أعدى أعداء "الإبداع" و "الاجتهاد" و "التجديد"!..

فليتق الله المخلصون – الغافلون – من مختلف الفرقاء؟!